دورُ المذهب الإباضي في التأثير والتأثُّر

صالح الهطالي

قمتُ بنشر هذا المقال مداخلةً لموضوع بهذا العنوان نُشِر في ساحة الحوارات بموقع "شبكة أهل الحق والاستقامة".

إن دراسة موضوع التأثير والتأثر لهو في غاية الأهمية نظرًا لما تحمله الكلمتان من مضامين، ولما يمكن أن تقوما به من دور في مجريات الحضارة الإنسانية. وقبل أن أُعرّج على المضامين الأخرى لهاتين الكلمتين، أبدأ بمناقشة أصل الكلمتين من ناحية فلسفية.

المعنى الفلسفي للتأثير والتأثر

إن "التأثر" منشؤه داخلي، وهو عبارة عن حالة من الشعور الإيجابي أو السلبي تسري في أعماق نفس المتأثِّر حول طرف آخر، وقد يعقُب هذا الشعور تغيُّر فكري أو سلوكي كتعبير عن تقبُّل المتأثِّر بالمتأثَّر به (في حالة الشعور الإيجابي)، أو رفض المتأثِّر بالمتأثَّر به (في حالة الشعور السلبي).

ونلاحظ هنا أنه قد لا يكون للطرف الآخر (أي المتأثَّر به) أيُّ دور في إحداث ذلك الشعور، وقد لا يعبأ بأيِّ تغيير يحدث للمتأثِّر، سواءٌ أكان ذلك التغيير إيجابيًّا أم سلبيًّا. فمثلًا، قد يتأثر أحدُنا بجمال لون زهرة معينة، فتسري في نفسه تيارات جارفة من أنواع الشعور المختلفة (الإيجابية منها والسلبية) بحسب حالته النفسية والشعورية، والفرضيات التي انعقدت في ذاته حول ما يدور حوله. وقد يعقب رؤية تلك الزهرة الجميلة تغيُّرٌ سلوكي يجعل المتأثِّر ينشرح صدره لمن يلقاه في ذلك اليوم، وقد

يكون الأمر عكس ذلك وهو أن يشعر بالأسى والحزن لما حبا الله به الكائنات الأخرى من جمال، ولما يفقده هو من ذلك الجمال، أو كأن يشعر بالأسى مثلًا حين ينظر إلى أن منبع ذلك الجمال في تلك الزهرة هو نقاء حياتها مما يقترفه هو من شنائع وما يعتريه من مكدِّرات.

أما "التأثير" فإن منشأه خارجي، إذ إن هناك طرفًا أول يحاول "إرغام" طرفٍ ثانٍ من خلال إيجاد بيئة "التأثر" التي ذكرناها سابقًا في نفس الطرف الثاني. وكما هو الحال بالنسبة للتأثُّر، فإن الطرف الثاني قد لا يعبأ بما يقوم به الطرف الأول، وخاصة إذا كانت الأساليب التي يتَّبعها الطرف الأول غير كافية لإحداث ذلك التغيُّر، أو كان الطرف الثاني على درجة عالية من التحصُّن تجاه مثل تلك الأساليب.

أما لو استطاع الطرف الأول "التأثير" في الطرف الثاني فإن الطرف الثاني قد يُتبِع حالة الشعور التي تتولَّد عنده بتغييرٍ في فكره وسلوكه. وأمثلة على التأثير هو ما يحدث في هذا العالم بصفة مستمرة، وخاصة في سلوكيات الناس من مِثْل الحديث أو الحركات أو حتى القوانين والضوابط التي يُصدرونها، فإن تلك الأمور تتولَّد عند أصحابها كمحاولة منهم للتأثير في الآخرين، لأسباب مختلفة، منها ما يحاول إيجاد قناعات جديدة عند الطرف الآخر، ومنها ما يحاول تغيير قناعات موجودة، ومنها ما يحاول فقط تحسيس الطرف الآخر بوجود مُولِّد "التأثير"، وهو الطرف الأول.

وعلى ضوء ما طرحتُه من بعض المعاني التي ربما قد تحتملهما كلمتا "التأثير" و "التأثر" فإننا نلحظ أن ما يُحدِثه "التأثر" في نفس صاحبه يبقى- في الغالب- إلى أمد، في حين أن ما يُحدِثه "التأثير" يزول سريعًا بزوال الأساليب المستخدمة في إحداثه، إلا إن كان فعل "التأثير" في الطرف الثاني قويًّا بحيث يبقى أثره أيضًا لفترة طويلة.

وأضرب هنا مثالًا على ما يمكن أن يُحدِثه "التأثير" في نفس (أو ربما فكر وسلوكيات) الطرف الثاني، وذلك من خلال ما نشاهده بصفة يومية من أعمال العنف والوحشية التي تقوم بها جهات مختلفة تجاه جهات أخرى، فإن تأثير تلك الأعمال على حياة المستهدَفين منها يبقى أثره لسنوات أو ربما عقود وقد يتحوَّل إلى فكرٍ يُحمَل لأجيال، وبهذا المعنى يمكننا تفسير ظاهرة الإرهاب التي يتحدثون عنها في هذه الأيام، فإنه- حسب تصوُّري- من الخطأ تفسيرها بالتصرُّفات الوقتية التي تحدث بين حين وآخر، وإنما علينا تتبُّع منشئها، ومَن ثَمَّ معرفة الطرف الأول الذي كان سببًا في إحداثها.

من المثال الذي سقتُه، والمتعلقِ بظاهرة الإرهاب، ندرك بأنه قد تحدُث تغيُّرات (وربما تغيُّرات بالغة) في نفس الطرف الثاني وفكره وسلوكياته بسبب الأساليب التي يتَّبعها الطرف الأول، ولكن تلك التغيُّرات قد تكون على عكس المأمول بالنسبة للطرف الأول؛ فالعاقل منا يرى- مثلًا- أن أمريكا لا تريد في شنِّها للحروب التي تدور رحاها حاليًا أن يتحوَّل المسلمون كمحاربين لها، وإنما تحاول "ترويضهم"- إن صحَّ التعبير- على قبول أمريكا كدولة مثالية للحرية والديمقراطية، كما يزعمون.

ومن ناحية أخرى، فإننا نلاحظ أن عملية "التأثر" ترتبط بحِدَّة المتأثَّر به، وبالمساحة الجغرافية والشعورية التي تتفاعل معها أحاسيس المتأثِّر. كذلك بالنسبة لـ "التأثير" فإنه مرتبط بعدد الأساليب التي ينتهجها الطرف الأول في عملية "التأثير" ونوعها وحدَّتها وتراتبها.

إن الطرح الفلسفي الذي قدَّمتُ به لهذا الموضوع هو ليس من قبيل الترف الفكري، وإنما ليوضح لنا بعض الجوانب التي علينا أن لا نغفل عنها ونحن نناقش تطبيق هذين المفهومين على أرض الواقع، وهو ما سأقوم به في الفقرات القادمة بإذن الله.

التأثير والتأثر على امتداد تاريخ الأمة الإسلامية

وقبل أن أتطرق إلى الموضوع المطروح، وهو دور المذهب الإباضي في عملية التأثير والتأثر، حريٌّ بي أن أعرّج على الكيفية التي تعاملت بها الأمة الإسلامية مع هذا الموضوع ليَسْهُل علينا فهم دور المذهب الإباضي في ذلك.

إنه مما لا يخفى لذي بصيرة أن الشارع الحكيم قد سنَّ ضوابط تحكم عمليتي التأثير والتأثر، وبيَّن أن "التأثر" لا يأتي إلا بقناعات تنعقد في نفس المتأثِّر، وأن تلك القناعات هي التي تُحدِث التغيُّرات المرجوة فيما بعد. لهذا فإن الله -سبحانه وتعالى- بيَّن هذه القاعدة تبياناً لا ريبة فيه حين قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** ﴾ (الرعد: ١١). كذلك فقد ضبط عملية التأثير بضوابط عدة، منها:

✓ أن التأثر لا يأتي إلا من قناعة داخلية: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾.

✓ أن الأســاليب المتَّبعة فيه لا بُدَّ أن تكون أخلاقية: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

✓ أن يتم استخدام الأساليب الناجحة: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) و ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

✓ أن التأثُّر مرهون بمشـيئة الله- سـبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦).

وقد وعى صحابة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هذه الآداب والضوابط وطبقوها في حياتهم مما كان لها الأثر البالغ في إتيان ثمارها، إذ دخل الناس في دين الله أفواجًا لا بقوة القهر وإنما ببريق ما يصطبغ في نفوس أولئك العظام من معانٍ سامية تجعل مَن يختلط بهم ويتعامل معهم عن قرب لا يملك إلا أن يعترف بهم ويسير في ركبهم. وقد سارت مسيرةَ الصحابة العظام أجيالٌ متلاحقة من صناديد هذه الأمة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وانتماءاتهم، وكان لهم دورٌ واضحٌ جليٌّ في بقاء عَبَق هذا الدين يفوح فتتنسَّمه أنوفٌ طالما أزكمتها نفايات الحياة المنتنة.

غير أنه أيضًا قد طرأ تناسٍ للمعان السامية لمفهومَيْ "التأثير" و "التأثر" التي أشرنا إلى بعضها سابقًا، فحوَّل الناس ذانك المفهومَيْن ليُصبِحا أداةً فقط لتكثير الأتباع، والانتقاص من الآخرين، والنَّيْل من حظوظ هذه الدنيا بما يتوافق مع الطموحات والنزوات. ويمكننا تعميم هذه القاعدة على جميع ما يسمى بالمذاهب الإسلامية، وعلى جميع ما طرأ على الأمة من تغيُّرات وأحداث، سواءٌ أكانت سياسية أم اجتماعية أم حتى علمية. وكما أشرتُ سابقًا فإنه- ولله الحمد والمنة- فقد وُجِد أناس في كل مذهب وفي كل حقبة من تاريخ هذه الأمة مَن حمل المعاني السامية التي نزل بها الوحي الشريف وجسَّدها نبي الأمة الكريم- عليه أفضل الصلاة والسلام- أيما تجسيد. ولولا تلك النخبة التي أبقاها الله لِتَمُدَّ هذه الأمة برافد النور البراق لأصبحت الأمة تغطُّ في دياجيرٍ من الظلم والتُّرَّهات، وأصبحنا لا نختلف كثيرًا عن غيرنا من أمم الأرض.

التأثير والتأثر في نطاق المذهب الإباضي

وبعد هذه المقدمة الوجيزة عن علاقة مفهومَيْ "التأثير" و "التأثر" بالأمة الإسلامية، أشرع في التعرُّض لموضوع هذا النقاش، وأبدأ بالقول بأن علاقة المذهب الإباضي بهذين المفهومَيْن لا يختلف كثيرًا عن علاقة غيره من مذاهب ومدارس هذه الأمة بهما. هذا يعني أن أتباع المذهب الإباضي- في مجملهم- قد سخَّروا- أو حاولوا تسخير- مفهوم "التأثير" لتكثير الأتباع ورسم صورة براقة عن علاقة المذهب بالمنبع الأصيل للإسلام لا تختلف كثيرًا عن تلك الصورة التي كان- وما زال- يصبغها أتباع المذاهب الأخرى عن مذاهبهم.

وأحب أن أبدأ أولًا بموضوع "التأثير" لنتطرق فيما بعد إلى موضوع "التأثر" كتقييم لحملة "التأثير" التي قام بها أتباع المذهب الإباضي. وحتى لا يُفهَم من حديثي أنني أتحامل على المذهب الإباضي- وأنا واحدٌ من أتباعه- فإني أقول بأنَّ كل ما قلتُه وأقوله ينطبق- ربما حرفيًّا- على غيره من المذاهب الإسلامية، وما حديثي هنا عن المذهب الإباضي إلا لكون الموضوع المطروح يدور حول هذا المحور.

ذكرتُ من قبل بأن "التأثير" يرتبط بعدد الأساليب التي يتَّبِعها الطرف الأول في محاولة تغييره للطرف الثاني ونوعيتها وحِدَّتها وتراتبها. وقد حاول الإباضية جهدَهم في تنويع أساليبهم لإقناع غيرهم بأن الفكر الذي يحمله الإباضية لا يختلف كثيرًا- إن لم يكن مطابقًا- للفكر الإسلامي الصحيح الذي جاء به محمد- صلى الله عليه وسلم-. وقد كان من تلك الأساليب ما هو عنيف وقاسٍ يحاول أن يجرِّد الطرف الآخر (أو الخصم) من كل مقومات الشرعية، ومنها ما كان "سِلْميًّا" نوعًا ما يعترف بالطرف الآخر كحامل لفكرٍ، وإن كان- حسب اعتقاد الطرف الأول- مغايرًا له.

وقد كان- في نظري- من الأساليب العنيفة أو القاسية أو الجافة- أو ما شئت أن تسميها- التي حاول فيها أتباع المذهب الإباضي إقناع غيرهم أنهم على الحق ما يلي:

- تسيير الجيوش كمحاولة لترسيخ دعائم الإمامات التي نشأت في اليمن وشمال أفريقيا (في القرون الأولى للإسلام)، وبسط نفوذ تلك الإمامات على أكبر رقعة من الأرض. ومما لا شكَّ فيه أن

الغاية من تلك الحملات- على الأقل حسب رأي أتباع المذهب الإباضي- هو توسيع نفوذ الإمامة الشرعية، وزيادة عدد مَن سينضوون تحت لوائها (طبعًا بالإكراه أولًا- حسب طبيعة كل حرب- وبالولاء لاحقًا)، وهذا يعني زيادة عدد أتباع المذهب الإباضي، والذي يُعتَبَر- حسب تقدير أتباعه – امتدادًا لما جاء به محمد- صلى الله عليه وسلم- من عند ربه.

- تسيير الجيوش في القرون المتأخرة إلى شرق أفريقيا والهند وغيرها من البلدان وذلك لنفس الغاية تقريبًا، وإن كان يبدو أن زيادة رقعة الأرض التي تحكمها الإمامة الإباضية قد تكون في الحملات الأخيرة ذات أولوية أكبر من تكثير الأتباع، فإن أتباع المذهب الإباضي في تلك الفترة قد زاد كثيرًا عما كان عليه في عهد الإمام جابر بن زيد- مؤسس المذهب الإباضي.

- تسيير الجيوش من قِبَل بعض السلاطين الذين حكموا عمان في فترات مختلفة، والذي كان هدفه بسط النفوذ على الأرض أكثر من تكثير أتباع المذهب، وإن كان هذا الأخير قد تحقَّق ولو بشكل بسيط في البداية وزاد العدد بعد تعاقب الأجيال.

أما الأساليب السِّلْمية فإنها كثيرة ومتنوعة، وإن كانت تتفاوت في حِدّتها حسب قوة أصحاب المذهب السياسية والعلمية، وبحسب العلاقات والاتصالات التي كانت تجري بين أتباع هذا المذهب وأتباع المذاهب الأخرى. نذكر من هذه الأساليب ما يلي:

- المناظرات التي تذكرُها لنا كتب السِّيَرْ كمناظرة المحكِّمة لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وكالمناظرات التي كانت تجري خلال مدة حكم الدولة الرستمية، وإن كانت المحكِّمة قد وُجِدَت قبل تبلوُر ما يُعرف اليوم بالمذهب الإباضي، إلا أنها تعتبر إحدى اللبنات التي شيَّدت صرح هذا المذهب.

- مراسلات بعض رموز المذهب الإباضي "للمخالفين" كرسالة عبد الله بن إباض لعبد الملك بن مروان.

- التعبير عن الفكر الذي يحمله المذهب، وذلك من خلال تقديم الدعم والتأييد والثناء لمن يسير في خطٍّ مشابه أو قريب من الخط الذي يسير عليه المذهب، ومن أمثلة ذلك الوفد الذي التقى بعمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه-، وكالثناء المتواصل لبعض العلماء (وخاصة المعاصرين منهم من أمثال سيد قطب وأبي الأعلى المودودي) للفكر الذي تبنَّوه في كتاباتهم، ولمواقفهم المشهودة تجاه مخالفيهم.

- المشاركة في بعض الوظائف للدول التي يتولى أمورها مخالفون للمذهب الإباضي، ومنها تولي الشيخ سليمان الباروني رئاسة مجلس المبعوثان في الدولة العثمانية المتعلق بالشمال الأفريقي.

- السياحة في الأرض للدعوة إلى الفكر الإباضي، وتغيير وجهة نظر الآخرين عن الإسلام. ومن أمثلة ذلك ما قام به سلمة بن سعد-رضي الله عنه- حين ذهب إلى شمال أفريقيا وقضى فيها سنين عديدة يبحث عمَّن يمكن أن يحمل الفكر الإباضي في تلك المناطق. كذلك ما قام به تجار الإباضية وعلماؤها في رحلاتهم المتوالية إلى أدغال أفريقيا وشرقها وإلى غيرها من المناطق.

- إلقاء المحاضرات والدروس الموجَّهة للمخالفين، والتي كانت قائمة بشكل ملحوظ في عصر الدولة الرستمية وربما في العصر الحاضر بصورة أوضح.

- تأليف الإباضية لآلاف الكتب في مختلف فنون العلم، والتي كانت في مجملها تتناول تلك الفنون من منظور إباضي، وإن كانت تستقي الكثير من مادتها من مصادر غير إباضية.

- الاحتكاك اليومي بالمخالفين، ومحاولة القيام بعملية التأثير إما مشافهة كحوارات شخصية وإما عن طريق القدوة بما يشاهده المخالِف من الإباضي وهو يقوم بأعمال تتعلق بالعبادات أو حتى بالأعمال الروتينية اليومية.

أثر تلك الأساليب

بعد أن قدَّمتُ ذلك التفصيل المجمل عن الأساليب التي اعتمد عليها أصحاب المذهب الإباضي- كما اعتمد عليها غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى- في محاولة "التأثير" في الآخرين، نحاول مناقشة أثر تلك الأساليب على الطرف الآخر، أي بمعنى آخر مناقشة مدى "تأثر" الطرف الآخر بتلك الأساليب- أو بالمذهب الإباضي وأتباعه بشكل أخص-.

كما قلتُ سلفًا فإن الأساليب العنيفة قد يتولَّد منها تأثُّرٌ بالطرف الأول، ولكن- في الغالب- يكون التأثُّر عكسيًّا. من هنا يمكننا أن نلحظ أنه رغم أن الإمامات قد قامت في اليمن وشرق أفريقيا، ورغم التوسُّع والامتداد الكبير الذي وصلت إليه الإمامة الإباضية في بعض الفترات، إلا أنه لم يكن هناك تأثُّرٌ يُذكَر من قِبَل المخالفين. والسبب في ذلك هو أن الطرف الأول- أي الغازي- هو في نظر الطرف الثاني معتدٍ ولا يحمل للطرف الثاني ما يمكن أن يكون بديلًا مقنعًا للواقع الذي كان يعيشه. وإن كان هذا الكلام قد ينطبق على الحملات العسكرية في العصور المتأخرة، غير أن ما قام به الإمام طالب الحق وقائده أبو حمزة الشاري- رضوان الله عليهما- من حملات كان يمكن أن تُؤتِي ثمارًا طيبة لو أتيح المجال بينهما وبين تبليغ دعوتهما للطرف الآخر. لكن الأجواء الموبوءة التي كانت تسود الأرض في فترة تلك الحملات- سواءٌ أكانت سياسية من قبيل بث الرُّعب والإرهاب من قِبَل الدولة الأموية، أم من قبيل الانحراف الفكري والأخلاقي الذي بدأ ينتشر في الجزيرة العربية- قد حالت دون وصول تلك الرسالة إلى الطرف الثاني.

أما فيما يتعلق بحملات التوسُّع التي حدثت في القرون المتأخرة، سواءٌ أكانت من قِبَل إمامات شرعية أم من قِبَل سلاطين فإنها لم تُؤْتِ ثمارها، وذلك نظرًا لاستخدام العنف كوسيلة لفرض النفوذ والسيطرة، وخاصة في زمن حكم السلاطين. وقد حدث ما كان متوقَّعًا بعد زوال نفوذ تلك الإمامات والسلطنات عن ديار الذين كانوا قد انضووا تحت لواء هذا المذهب، فقد تحوَّل معظمهم عن المذهب أو ربما تخلَّوا عن دينهم بالكامل.

أما عن الأساليب الأخرى كالمناظرات والمراسلات فإنها ما كانت لتُجدي شيئًا، فإنها أولًا موجهة لأشخاص أو فئات محدودة, وثانيًا هي- في الغالب- لا تعترف بوجود الطرف الآخر، وإنما

تحاول فرض فكر الطرف الأول بالقسر- وإن كان يتاح المجال للطرف الآخر للرد-. والمناظرات- كما هو معروف- تستفز الطرف الآخر، وتجعله أكثر تمسُّكًا بقيمه ومبادئه، وأكثر إعراضًا عن قبول رأي المخالف له. من هنا فإني أشك فيما يُنقَل في كتب السِّيَر من قيام بعض العلماء بمناظرة الآلاف من المخالفين ونجاحهم في إرجاعهم إلى "دين الله".

أما عن المحاضرات والدروس فإنها- وإن كانت أفضل حالٍ من المناظرات- إلا أنها أيضًا تحاول الانتقاص من الطرف الآخر، وذلك من خلال المديح الذي يكيله المتحدِّث لمذهبه وعبارات التذمُّر من الطرف الآخر التي- في الغالب- ما تتناثر عبر تلك المحاضرات والدروس. كذلك فإنها نادرًا ما تتيح للطرف الآخر فرصة التحاور البنَّاء، وإنما تنتهج أسلوب التلقين. ولا يخفى أيضًا أن أسلوب الإلقاء المتَّبَع عند المحاضرين- وبالأخص المشائخ منهم- لا يُشجِّع المستمع على التفاعل مع الموضوع فضلًا عن التأثر به، وهو الأسلوب الذي ما زلنا نلحظه عند معظم المحاضرين في هذا الوقت إلا الندرة النادرة من الشباب الذين استطاعوا التحرُّر من تلك الرتابة المملَّة والعرض السطحي للموضوعات المطروحة.

وفيما يخص التأليفات الإباضية فإنها- في غالبيتها- لا تخدم عملية "التأثر"، فإنها موجهة للإباضي فقط، وتناقش المواضيع التي تحويها من وجهة نظر إباضية بحتة، وإن كانت بالطبع تستقي من الكتاب والسُّنَّة كمصدَرَيْن لها. كذلك فإنه بالرغم من أن معظم التآليف الإباضية تنقل أقوالًا للمخالفين على اختلاف مشاربهم، إلا أن الطرح الذي تعتمده لا يشجِّع المخالف على تبنيه وذلك للفرضيات والقناعات التي- في الغالب- ما تتحكَّم في ميزان الاعتراف والرَّفض عند المخالف.

يبقى هنا أن أشير إلى أن الساحة الإباضية تكاد تخلو من المشاركات في العمل المؤسسي الذي يمكن أن يستفيد منه الإباضي وغير الإباضي، وقد تكون الإمامة هي من أبرز المؤسسات التي قامت على امتداد حقب الأمة، غير أنها كانت معنونة على أنها إمامة إباضية، ولهذا فلم يكن ينضوي تحت جناحها إلا مَن كان إباضيًّا.

ما يمكن القيام به

بعد هذا التطواف المتشعِّب في تاريخ المذهب الإباضي وواقعه نعود إلى موضوع هذا النقاش، ونتساءل في الأساليب التي يمكن أن يكون لها الأثر البالغ ليس في "التأثير" في الآخرين، وإنما في خلق المناخ المناسب للآخرين ليقوموا هم أنفسهم بعملية "التأثر" بالمذهب الإباضي وأتباعه. وهنا أوورد بعض التصوُّرات حول ما يمكن القيام به:

- علينا أن ندرك أولًا أن مدى تأثر كل طرف بالطرف الآخر يعتمد على ما عند الطرف الآخر من المقوِّمات التي تبعث حالة من الشعور بالرضى والإعجاب أو بالسخط والاشمئزاز من الطرف الأول. من هنا فعلينا أن لا يكون خطابنا موجَّها لطرف آخر، وإنما يكون خالصًا لوجه الله، ويخدم دين الله بمجمله وأمة محمد- صلى الله عليه وسلم- بكافة أبعادها. هذا يعني أنه عندما نطرح قضية معينة- سواءٌ أكان ذلك مشافهة في محاضرة أم درس أم كان كتابة- فإننا نطرحها لا لأجل محاولة إقناع الطرف الآخر بها، وإنما نطرحها بما تتطلبه القضية نفسها من بحث وتَقَصٍّ.

- علينا أن لا ننتقص من الطرف الآخر، سواءٌ أكان ذلك بصورة عملية عن طريق النَّيل من الرموز الفكرية التي ينتمي إليها الطرف الآخر والتراث العلمي والفكري الذي بحوزته، أم كان ذلك بصورة سلبية عن طريق تجاهل الطرف الآخر، وخاصة إن كان المقام يستدعي الاعتراف بما عنده من محاسن.

- علينا أن نلجأ إلى أسلوب التحاور البناء، دون أن يكون هدفنا إقناع الطرف الآخر، ومع الامتناع التام عن استخدام الأساليب المنفِّرة، وإنما يكون باستخدام الطرح العلمي الذي يعترف بالطرف الآخر، ويبني على ما يقوم به من أدوار.

- البدء في العمل المشترك الموجَّه إلى الأمة الإسلامية وليس إلى أتباع المذهب الإباضي. ويؤسفني أن استخدم هنا كلمة "البدء"، ولكنها الحقيقة؛ فمشاركة الإباضية في حاضر الأمة الإسلامية- فضلًا عما يدور في العالم من أحداث- لا تكاد تُذكر. وإن كانت للعصور السابقة خصوصيتها من ناحية المساحة الجغرافية والجماهيرية التي يمكن أن تنالها المشاركات، إلا أن حاضر الأمة

الإسـلامية- والعالم أجمع- ليتطلب من المشـاركات المعاصـرة أن تكون ذات خصـائص وأبعاد مختلفة. ويمكنني أن أذكر هنا بعض تلك الخصائص:

- ✓ يجب أن تكون المشـاركة تخدم أكبر شـريحة ممكنة من الناس، وكلما توسَّـعت الرقعة الجغرافية والبشرية التي تخدمها كان لها أثرٌ أبلغ.

- ✓ يجب أن تكون المشـاركة ذات قيمة- حسـب ميزان الناس في هذا الوقت-، فمثلًا المشـاركة السـياسـية قد تكون في هذا الوقت ذات أهمية أكبر من المشـاركة في الجوانب الصـحية أو الاجتماعية.

- ✓ أن لا تحمل في طياتها أسـلوب "التبشـير" الهادف إلى تغليف اللقمة بغلاف مسـيحي يجعلك لا تستطيع الوصـول إلى اللقمة دون أن تأكل معها المعاني المسيحية المغلَّفة بها. إن علينا أن نقدِّم مشـاركاتنا للمسـلمين خاصـة وللعالم أجمع لا على أنها من صـنع أيادٍ إباضـية، وإنما من قلوب مسلمة يعمرها الإيمان وتغمرها الرحمة.

- ✓ أن نسعى دومًا لأن تكون أعمالنا- بجانب خلوصها لله سبحانه وتعالى- ذات جودة وفعالية تفوقان توقعات الآخرين، و بمثل هذه الأعمال سـيكون انبهار الطرف الآخر بنا، ومَن ثَمَّ تأثره بنا.

- ✓ أن تكون أعمالنا ذات حجم كبير، فإن الأعمال البسيطة لا تطفو على السطح، وخاصة في هذه الأيام التي تعمل فيها الكثير من القوى، وبصـورة حثيثة وفاعلة، لإبراز نفسـها كمصـدر فريد للتلقي. مثلًا، لا يكفي لنا إن أردنا إنشـاء محطة فضـائية أن تكون مشـابهة لأفضـل المحطات الفضائية العالمية، وإنما لا بُدَّ لها من أن تسبقها بمراحل عديدة سواءٌ من ناحية الطرح أو الإخراج أو الاستهداف.

- ✓ أن نسـعى دومًا لأن تكون إنتاجاتنا رائدة في المجال الذي تدور حوله، وعندها نكون قدوة ليس فقط للطرف الآخر من أبناء جلدتنا وإنما للعالم أجمع.

هذا ما وفَّقني الله للحديث عنه، وأسأل الله- سبحانه- أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، وأن يرزق كاتبه وقارءه الأجر والثواب والهمَّة لنقله من حيِّز التنظير إلى حيِّز التطبيق، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.